مقدمة

فصول هذا الكتاب لمحات تاريخية — أرجو أن تكون كاشفة موحية — وصور جلية موجزة لبعض العلية النادرين من رجال الأقدار ، وأفذاذ التاريخ ، الذين جازوا بهذه الحياة — وادى العبرات كما سماها القدماء — متغلبين على صعابها ، مستعلين على ضروراتها ، وتبوءوا من التاريخ موضعاً ملحوظاً ، واستأثروا منه بصفحات حافلات . ولم يكن من همى أن أستقصى جملة أخبارهم ، وأستوعب شتى أحوالهم ومنازعهم ، وإنما حاولت أن أجلو طرافة شخصياتهم بطريقتين : إحداهما أن أتخير بعض المواقف الخاصة البارزة فى حياتهم ، وطائفة من الحوادث المعينة التى انتابتهم وأظهرت مدخر قوتهم ، وكامن ملكاتهم . والطريقة الثانية توضيح أثر احتكاكهم بشخصيات أخرى تماثلهم فى الاقتدار والفحولة ، وتساميهم فى الإنافة والسموق ، وتخالفهم فى طبيعة الملكات والمواهب ولون المزاج وطريقة فهم الحياة والنظر إلى الكون . وإذا صح أن الأشياء تتميز بأضدادها فإنى أرجح أننا نعلم أشياء كثيرة قيمة عن نابليون بتأمل علاقته برجل مثل تاليران ، ونفهم جوانب هامة من شخصية لينين بدراسة صلاته بما كسيم

جوركى . ولعل موقف فردريك من فولتير يمدنا بمعلومات نفيسة عن نفسه وأخلاقه ويكشف لنا عن أساليب فردريك فى السياسة وأفانينه فى الدهاء ، ولعلنا نفهم المنصور فهماً أدق وأوفى إذا ألممنا بموقفه حيال أبى مسلم من ناحية وبموقفه إزاء عمه عبد الله بن على — بطل وقعة الزاب — من ناحية أخرى . وقد لجأ فلوتارخس Plutarch كاتب التراجم المشهور بل إمام كتاب التراجم قاطبة إلى عقد الموازنات التاريخية فى ذيل بعض تراجمه لأعيان الرومان واليونان ، وكان يتحرى فى موازناته تشابه الملكات ويتكلف الموازنة تكلفاً ، أما الموازنات فى هذه الفصول فإنها من عمل « عبقرية التاريخ » وقد جاءت عفواً فى سياق حوادثه وغريب اتفاقاته ورائع ملابساته . وفى اعتقادى أن أمثال هذه الفصول قد تجدى فى علمى النفس والاجتماع وتعين المؤرخ على النفاذ إلى دخائل التاريخ وإدراك جانب من علله الخفية وبواعثه المجهولة . ولست فى دراسة التاريخ من مقدسى الأبطال وعباد العظماء ، ولكننى شغوف بتتبع الطرز النفسية المختلفة ، والأنماط الأخلاقية المتباينة التى تجود بها الطبيعة المعطاء ، ولست من الذين يبغون من التاريخ استخراج العبر والمثلات ، أو يلتمسون فيه مضرب المثل وموضع القدوة ، والانتفاع بعبر التاريخ فى رأيى من الأمور المشكوك فيها ، واتخاذ العظماء قدوة من الأمور المسلية . ولا يمكن القزم أن يصير عظيما بمجرد اطلاعه على سير العظماء ومحاولته محاكاتهم ، وربما يصور له الوهم أنه أصبح عظيما ولكن الناس سيرون منه غير ذلك

ومن جهلت نفسه قدرها رأى غيره منه ما لا يرى

وقد زعموا أن نابليون حاول غزو الشرق تشبهاً بالإسكندر المقدونى ، وإذا صح ذلك فربما كان من أسباب فشله ودواعى سقوطه . وخير للإنسان أن ينمى ملكاته فى الحدود المقسومة لها من أن يحاول صياغتها على مثال خارجى ، وصبها فى قالب غير القالب الذى فرضته عليه طبيعته . وإنما أحاول أن أستعين بالتاريخ والتراجم على توسيع آفاق النفس والاستكثار من التجارب وفهم حقائق الكون وأسرار الحياة . واستجلاء غوامض الحياة لا يلتمس فى أغوار البحار وحدها ولا فى خوافق السماء وخفايا الأرض فحسب ، وإنما فى « نفس الإنسان » ومن ثم أهمية التراجم فى الأدب الحديث لأنها تتناول صميم الحياة ولبابها وتعرض صور النفس الإنسانية وتروى قصة أشواقها وشجونها ومساءاتها ومسراتها ، وأجل موضوع دراسة للإنسان هو الإنسان نفسه ، وما أصدق قول الشاعر الحكيم

وتزعم أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر

على أنهم